البروفيسور عبد الرحيم محمد خبير
نجم أفل عن سماء الآثار السودانية

د. محمد الفاتح حياتي
قسم الآثار ، جامعة الخرطوم

في هذه العُجالة نحاول تناول سيرة الراحل المقيم البرفيسور عبد الرحيم محمد خبير، مع إلقاء الضوء على مسيرته الأكاديمية والمهنية، مستعرضين بعض إنجازاته العلمية وإسهاماته في مجال خدمة المجتمع. ونهدف بذلك تخليد ذكرى الفقيد من خلال سرد عطائه العلمي والمهني في شتى المجالات التي شارك فيها من خلال إعداد سجل توثيقي مختصر يحوي مختلف الجوانب في حياة الراحل. وذلك لما فيها من لمحات مشرقة كانت جديرة بالتوثيق (لوحة 1)، بحيث تكون ذات فائدة للمعرفة برواد علم الآثار الوطني في السودان، وإضافة لسجل تراجم الأعلام في السودان.

لوحة 1. صورة مزدوجة للراحل بين مرحلتي الصبا والكهولة.

تبدَّت مأساة هذا البلد في فقد عالم جليل، وآثاري من الجيل الذهبي للآثاريين السودانيين، وعالم موسوعي وأديب خلَّاق، ومثقف مستنير. ألا هو البروفيسور عبد الرحيم محمد خبير ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه، الذي رُزِئت الأوساط العلمية بفقده والبلاد تمرُّ بمنعطف تاريخي لم تشهد له مثيلا في هذا القرن الأخير. فقد فقدت البلاد علماً من أعلام علم الآثار، كيف وهو يمثل الجيل الثاني من الآثاريين السودانيين الذين أسسوا لعلم الآثار في الجامعات السودانية فتخرَّجت على أيديهم أجيال حملت على عواتقها قضية علم الآثار الوطني. وقد كان لا بد علينا من التوثيق لهذا العَلَم. ولعلنا نستطيع به إيفاء القليل من الدَّين الذي على رقابنا لأستاذنا الراحل المقيم في قلوبنا. وهو من باب الإكرام والتوقير لشخصه الكريم الفاضل. فاللهَ نسأله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله هدية واصلة منا لروح فقيدنا كريم الأصل والفِعال، وأن يتقبله منا عملاً طيباً مباركاً فيه.

مقتطفات من سير الراحل:

يعد البروفيسور الراحل شخصية أم درمانية تشبعت بحب مدينة أم درمان بأرضها وإنسانها وثقافتها، فهي أرض الميلاد والنشأة، إذ وُلد فيها الراحل بحي بيت المال المعروف، ونشأ بها، وبدأ مسيرته التعليمية بها، فقد درس في المدراس الأولية والوسطى بمدارس أم درمان، ثم انتقل إلى مدرسة أم درمان الأهلية الثانوية الحكومية لدراسة المرحلة الوسطى، وذلك بين عامي 1968-1972م. ولعل ما يلفت أكثر؛ ارتباطه الوثيق بمدرسته الثانوية العليا سالفة الذكر. فحبه لهذه المدرسة والأنشطة اليومية فيها يبعث الشوق وحب الاستطلاع لدى القارئ لزيادة المعرفة بهذه المدرسة بشكل أكبر.

المرحلة الجامعية:

ثم انتقل الراحل إلى دراسة مرحلة البكالوريوس بكلية الآداب بجامعة الخرطوم في العام 1972م، وكان ضمن الدفعة الثانية التي التحقت بقسم الآثار ضمن ثلة طيبة من الذين أثروا الحياة الأكاديمية والمهنية داخل البلاد وخارجها. إذ نال مرتبة الشرف في علم الآثار في العام م1977. وتُعد هذه المرحلة من حياة الراحل مرحلة مفصلية انبنت عليها معالم شخصيته الأكاديمية والمهنية والثقافية، وكانت مرحلة الانطلاق إلى آفاق المعرفة الرحبة. واللافت للانتباه أن الراحل كان يعتزّ بتلك المرحلة أيما اعتزاز، فكان كثيراً ما يتجاذب أطراف الحديث عن دراسته بجامعة الخرطوم في جلساته الرسمية وغير الرسمية، منبئاً عن مورد عذب ومعين لا ينضب، وعطاء علمي وثقافي أثرى دواخله بكل ما هو طيب. ومن هناك كانت مرحلة الانطلاق نحو المستقبل. فقد كانت جامعة الخرطوم وعاءً جامعاً للعلم والمعرفة، وبوتقة تلتقي فيها شتى أصناف الثقافة المحلية والإقليمية والعالمية، وتحوي جواً مفعماً بالإبداع الثقافي والفكري (لوحة 2).

لوحة 2. مشاهد يظهر فيها الراحل وهي تجسد بعض اللحظات والأنشطة خلال أيام الجامعة.

المرحلة ما بعد الجامعية- دراسة الماجستير:

أتاح للراحل عدم بُعده عن جامعة الخرطوم بالمشاركة في العمل في الدراسات الميدانية التي أدارها قسم الآثار بالجامعة بالتنسيق مع مصلحة الآثار في بعض المناطق داخل الأراضي السودانية. فكان أن شارك الراحل في العمل في مشروع البحث الآثاري بمناطق شمال أم درمان. وكان العمل تحت إشراف الراحل المقيم البروفيسور أحمد محمد علي الحاكم طيَّب الله ثراه وأكرم مثواه، وهذا ما أعطى أستاذنا الراحل المقيم فرسة إجراء الدراسة الميدانية في تلك المناطق، وكذلك أعطاه شرف أن يكون الراحل المقيم البروفيسور الحاكم مشرفاً. تُوِّجت هذه المرحلة من حياة أستاذنا الراحل باكتساب لطائف المعرفة من أستاذه الذي أغدق عليه من بحار علمه المتلاطم، فكان أن قام البروفيسور خبير بإجراء أبحاثه الميدانية في موقع السروراب 2، لاستكمال متطلبات نيل درجة الماجستير في آثار ما قبل التاريخ، وقد تم له ذلك في العام 1982م.

دراسة الدكتوراه:

نال أستاذنا الراحل فرصة لنيل درجة الدكتوراه في جامعة ساوثامبتون بالمملكة المتحدة، وهي إحدى الجامعات البريطانية العريقة. فقد كانت هذه المرحلة ذات أهمية كبيرة في حياة الراحل، إذ أعطت أستاذنا الكثير من المعارف الثرة، ودعمته بالعلائق الأكاديمية النبيلة بين

أساتذته وزملائه في المملكة المتحدة. وقد أشرف على رسالته للدكتوراه أحد العلماء الأفذاذ بجامعة ساوثامبتون، وهو البروفيسور ديفيد بيكوك (لوحة 3)، وهو حد أبرز ثلاثة علماء في العالم في تخصص علم السيراميك الأثاري المستند إلى التحليلات الجيولوجية والبيئية Archaeological Ce-ramics . استفاد الراحل من تلك الفترة بشكل جيد في حياته الأكاديمية والمهنية إلى أن نال درجة الدكتوراه في علم الآثار والتاريخ القديم في العام 1996م.

لوحة 3. الراحل البروفيسور خبير مع مشرفه على رسالة الدكتوراه؛ البروفيسور ديفيد بيكوك.

الحياة المهنية للراحل:

كان الراحل يتحدث بشغف عن الأيام الخالدة في ذكراه عن جامعة الخرطوم، ومدى حبه الشديد لهذي المؤسسة العملاقة التي يعشقها كل من انتمى لها بأي شكل من الأشكال. فمن تخرج فيها يظل يحنُّ إليها مهما بعُد عنها. فبعد أن تخرج أستاذنا الراحل في جامعة الخرطوم؛ رافق أستاذه الراحل البروفيسور أحمد الحاكم في الدراسات الميدانية التي كانت جامعة الخرطوم تُنفذ فيها دراستها وأبحاثها العلمية، علاوة على تدريب الطلاب في مراحل البكالوريوس والدراسات العليا. فقد شارك في مسوحات وتنقيبات جامعة الخرطوم بقرية الباعوضة بمنطقة السروراب وغيرها في كثير من مناطق السودان (لوحة 4).

لوحة 4. توثيق لأحد المواسم الميدانية في جزيرة مقرات مع الدكتور بول كالو، منتدب من جامعة كمبردج إلى جامعة الخرطوم.

وخلال تلك الفترة أتاح له البروفيسور الحاكم العمل كمتعاون للتدريس بقسم الآثار بجامعة الخرطوم خلال فترة مشاركته كعضو أساسي في مشاريع القسم البحثية الميدانية، وذلك إبان فترة إعداده لرسالة الماجستير. كذلك كان يشارك في تدريب طلاب قسم الآثار بجامعة الخرطوم خلال تلك الفترة. ويضيف أستاذنا بأنه عمل كباحث بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم لفترة قصيرة من حياته العملية. وكان ذلك بين الفترة ما بين (1983-1978م).

ثم انتقل الراحل للعمل بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية بالرياض (قسم الآثار والمتاحف) فقد بدأ الراحل العمل كمحاضر بجامعة الملك سعود في العام 1983م وحتى العام 1991م، ثم يسافر بعدها لنيل درجة الدكتوراه، مع أنه لم ينقطع عن المشاركة في بعض أنشطتها الميدانية، ومن ثم يعود لمواصلة العمل بذات المؤسسة من العام 1995م وحتى العام 2000م.

كان مرحلة العمل بجامعة الملك سعود ذاخرة بعطاء أستاذنا الراحل. فقد أدى كل واجبات الأستاذ الجامعي على أكمل وجه، إذ شارك في التدريس والبحث العلمي والترجمة وخدمة المجتمع بالمشاركة في تدريب أجيال من الخريجين حملت على عواتقها حماية التراث الثقافي بالمملكة العربية السعودية. وقد أعطى أستاذنا تلك المرحلة الذهبية من عمره كل ما يملك من خبرات وقدرات أكاديمية ومهنية تشرَّف بها وطنه السودان وجامعته التي تخرج فيها. كما نال منها الكثير من المعارف والزمالات الأكاديمية التي زادت خبرته صقلاً. فقد كان أكاديمياً رصيناً، وباحثاً آثارياً متمكناً. إذ شارك في تنقيبات جامعة الملك سعود بموقع قرية الفاو جنوب المملكة العربية السعودية (لمدة أربعة عشر موسما 1996-1983م(. واستمر عمله بجامعة الملك سعود لمدة سبعة عشر عاماً (في الفترة ما بين 2000-1983م) (لوحة 5).

لوحة 5. توثيق لبعض اللحظات خلال فترة عمله بجامعة الملك سعود.

بعد تلك المرحلة عاد الراحل إلى وطنه ليستقر به المقام في المؤسسات الأكاديمية والوطنية. فقد حط رحالة بجامعة جوبا، وأعطاها عُصارة خبرته الأكاديمية والإدارية وأمدها بثمرات معارفه الدانية، وكان قُرة في جبين تلك الجامعة، إذ انضم إلى هيئة التدريس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وانخرط في أعمال التدريس والعمل الإداري بالكلية والجامعة. وبدأ باكورة عمله بتأسيس قسم للآثار بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وأصبح أول رئيس للقسم في العام 2001م. استمر يتنقل بين أروقة الكلية المختلفة من قاعات المحاضرات إلى مكاتب القرار الإداري المختلفة بالكلية، تمثلت في الإشراف الأكاديمي وإدارة الامتحانات والمشاركة الثرة في إدراة الكلية التي بلغت ذروتها عندما تم تعيينه عميداً للكلية لدورتين متتاليتين في الفترة ما بين 2013-2006م. وخلال تلك الفترة أدى عدداً من المهام الإدارية والأكاديمية التي توضح بجلاء حنكته الإدارية وخبرته التي راكمتها الأيام والسنوات.

ثم انتقل بعد ذلك ليشغل منصب عميد كلية الدراسات العليا بجامعة جوبا التي أصبحت تسمى جامعة بحري بعد أن انتقلت جامعة جوبا إلى جنوب السودان (في الفترة ما بين 2017-2013م). ومنذ ذلك الوقت أصبح عضواً في عدد من المجالس واللجان داخل الجامعة وخارجها في عدد من الجامعات والمراكز العلمية. كعضويته في مجلس الدراسات العليا بجامعة شندي. كذلك عضويته في الهيئة العلمية والاستشارية لمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر.

لم تقتصر مهامه على التدريس داخل المكاتب والقاعات، بل قام بكل مهام الأستاذ الجامعي والعالم المتكامل، فقد شارك في التدريس داخل وخارج جامعة جوبا-بحري، وفي إعداد وتنقيح المناهج الدراسية، كما أسهم بقدر كبير في الإشراف على طلاب الدراسات العليا داخل وخارج جامعته، وشارك كممتحن خارجي لرسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف الجامعات السودانية.

إسهاماته في مجال الآثار السودانية:

عندما عكفنا على مطالعة السيرة الذاتية للراحل وجدناها مليئة بالعطاء الذاخر للآثار السودانية منذ المرحلة الجامعية. فقد شارك الراحل في الكثير من المشاريع الميدانية، وبخاصة في مرحلة شبابه وقبيل انتقاله للعمل بالمملكة العربية السعودية. فقد مثَّل جامعة جوبا في البعثة المشتركة للحفريات الأثرية بين جامعة جوبا ومعهد بوزنان البولندي بموقع الكدرو1، حيث عمل نائباً لرئيس البعثة المشتركة البروفيسور لخ كرزنياك (أكتوبر – نوفمبر 2004م). كما مثَّل جامعة جوبا في مشروع العمل الآثاري المشترك بين جامعة جوبا ومعهد الآثار بجامعة بيرجن، النرويجية (يناير – فبراير 2007م(. لذلك كان له أثر كبير في التدريب الميداني لطلاب جامعة جوبا-بحري، فقد كان يشرف بنفسه على برامج المسح والتنقيب وإدارة المصادر الثقافية والآثارية لفترات طويلة. وخلال تلك الفترة كان الراحل يقوم بتدريب الطلاب في موقع الكدرو الأثري وغيره من المواقع الأثرية الموجودة على امتداد النيل.

علاوة على ذلك فقد كانت للراحل أعداد مقدرة من الكتابات في الآثار السودانية شملت المقالات والتقارير الميدانية والكُتب التي كُتبت باللغتين العربية والإنجليزية. وقد كان له قدر وافر من المقالات التي كتبها في الصُحف اليومية في الآثار وغيرها من مجالات الثقافة والحياة اليومية. وهو ما تميز وتفرد به أكثر من غيره من الآثاريين السودانيين. وقد وُثقت له العديد من الحلقات في الإذاعات والقنوات التلفزيونية المختلفة التي تنصبّ في توعية المجتمعات بأهمية الآثار والتراث وضرورة المحافظة عليه، وطرح المشاكل التي تواجه الآثار السودانية. وهذا الأمر من الأهمية بمكان. وفوق ذلك كان مشاركاً بشكل فعَّال في المؤتمرات عن الآثار السودانية داخل وخارج السودان إلى أن وافته المنية.

البروفيسور خبير- عالم موسوعي:

لم يكن الراحل المقيم منغلقاً على علم الآثار فقط. بل كان مثقفاً ألمعياً وعالماً موسوعياً. فقد كان من هواة الأدب واللغة العربية والثقافة بشكل عام. وكانت له مساهمات ثرة في هذا المجال. إذ كان عضواً في الاتحادات والمجالس الفكرية والأدبية. وله في هذا الشأن إسهامات ضخمة لا تقل شأناً عن عطائه في مجال الآثار . وقد تم تكريمه بأن نال جائزة الجدارة العلمية من الاتحاد العام للآثاريين العرب في العام 2020م. كما نال درع التميز العلمي من مركز أبحاث ودراسات دول حوض البحر الأحمر للعام 2023م.

يُعد التوثيق والدقة من أهم الصفات الملازمة لأستاذنا الراحل المقيم. فالمتابع لشخصيته يجد أنه يوثق لكل صغيرة وكبيرة ويحتفظ بها. وعند مراجعة سيرته الذاتية المحترمة تلاحظ ذلك بجلاء. فلم يترك شاردة إلا قيدها ووثقها بتاريخها. ومثل هذه الصفات قلَّ أن تجدها في كثير من الناس. وهو بذلك يكون قد حفظ للأجيال القادمة كثيراً من تفاصيل مسيرته الطيبة العطرة. واستمر على ذلك الحال إلى أن بلغه الأجل المحتوم عند فجر الجمعة في الثاني من فبراير 2024م.

إن الحديث عن الراحل المقيم لا ينتهي في صفحات قلائل، فعطاء عالِم مثله يصعب حصره في هذه السانحة. والقصد من ذلك المشاركة في هذه التظاهرة التي توثق لبعض رموز علم الآثار السودانيين الذين رحلوا في هذه الفترة الأخيرة. وعلى أمل أن نفرد له مساحة خاصة في القريب العاجل بإذن الله تعالى، نستعرض فيها سيرته الطيبة بتأنٍ يليق بشخصه الكريم وعطائه الفخيم. ألا رحم الله أستاذنا بأكثر مما قدَّم للبشرية وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. والحمد لله أولاً وآخراً.